

الرواية من متعة السرد إلى هيمنة الخطاب

قراءة نقدية في رواية (الملحد) لـ (عبد الباقي يوسف)

The Novel from Narrative pleasure to the Dominance of Discourse,
A critical reading of the Novel (Al-Mulhid) by Abdel Baqi Youssef

Dr. Hammam Yassin Shukr

د. همام ياسين شكر محمود

Lecturer

مدرس

Department of Religious

Education and Islamic Studies -

دائرة التعليم الديني والدراسات

Sunni Endowment Office

الإسلامية - ديوان الوقف السني

homamhimam@gmail.com

الكلمات المفتاحية: الرواية، الخطاب، الإلحاد، السلطة، عبد الباقي يوسف

Keywords: the novel, the discourse, the atheist, authority, Abdel Baqi Youssef

الملخص

الرواية فضاء نصي متسع، وعالم تخيلي ممتد، وهي الجنس الأدبي الأقدر على تمثيل وتجسيد الأيديولوجيا، ولأنها كذلك فقد أخذت تساهم وبشكل فعال في عملية تشكيل الوعي، وقولبة الأفكار، نظرا لما يُتاح لها من آليات وأدوات فنية وإغرائية تستميل القارئ وتُطوّعه لتقبل الأفكار التي تطرحها. بمعنى آخر: ثمة روايات أخذت تُمارس سلطة (لغوية وصورية) على قرائها لتضليل أفكارهم، بسرديات هي خليط متقن من الخيال والواقع.

تأتي أهمية هذه الدراسة من أنها تكشف للمهتمين بتصحيح الأفكار وتنوير العقول، حيل الآخر في صناعة الوعي الزائف، ولا يكون هذا ممكناً إلا بتحقيق النقد المعرفي، الذي يكفل لأولئك المهتمين الاطلاع على عملية تطويع اللغة من قبل كتاب الرواية، وصولاً إلى السطوة والهيمنة. وتتخذ الدراسة من رواية (الملحد) لـ (عبد الباقي يوسف) سبيلاً لكشف المستور وتعرية المضمّر، بواسطة التدليل على آليات الاغراء والاقناع الفنية واللغوية التي قصدها الرواية لاستمالة القارئ وتضليل وعيه سواء ما يخص قضايا الإلحاد أو القضايا الفكرية الأخرى، فضلا عن كشف الإيديولوجيات التي تقف وراء الخطاب، فثمة سلطة خفية تقف خلف أي منجز سردي بما في ذلك هذه الرواية.

Abstract

The novel is an expansive textual space and an extended imaginative world. It is the literary genre most capable of representing and embodying ideology, and because it is so, it has participated in an act in shaping awareness and molding the ideas. Therefore, because of the Art tools and seductiveness that are available to it, it lures the reader and forces him to accept the ideas that it presents. In other words: There are novels that exercise authority (linguistic and visual) over their readers to mislead their thoughts, with narratives that are carefully composed of fiction and reality.

The importance of this study comes from the fact that it reveals to those interested in correcting ideas and enlightening minds, the tricks of others in creating false awareness, and this is only possible by achieving cognitive criticism, which ensures that those interested are informed of the process of language adaptation by novel writers, leading to power and hegemony. The study takes the novel (Al-Mulhid) by (Abdul Baqi Youssef) as a way to reveal what is hidden and expose the implied meaning, by demonstrating the artistic and linguistic mechanisms of seduction and persuasion that the novel intended to win over the reader and mislead his awareness, whether regarding issues of atheism or other intellectual issues, as well as revealing the ideologies that stand Behind the speech, there is a hidden authority behind any narrative achievement, including this novel.

المقدمة

لقد واكبت الرواية منذ نشأتها الأولى الأحداث والمتغيرات المجتمعية، وارتبطت أيما ارتباط بالواقعية، فراح الروائيون يحاكون الواقع ويعالجون قضايا الاجتماعية والسياسية والدينية وحتى الاقتصادية والصحية، فليس ثمة جنس أدبي استطاع ملامسة الواقع والنفوذ إليه كما فعلت الرواية، مستفيدة من خصائصها الفنية والبنائية، لذلك قلما تجد حدثا اجتماعيا أو سياسيا أو دينيا لم تطرق الرواية بابه، أو تطأ بقدميها أرضه.

وقد كانت الرواية من أولى الفنون الأدبية التي رصدت تداعيات احتلال التنظيمات المتطرفة لبعض المدن السورية والعراقية، كونها تستطيع أن تصنع عالما خياليا موازيا للعالم الموجود على أرض الواقع، فهي جنس - إن صح التعبير - هجين بين الأدبي وغير الأدبي، منفتح على كافة الموضوعات والميادين، لا يُقيده وزن أو قافية أو أسلوب تعبير محدد، يستطيع الكاتب داخله أن يفلسف الأمور كما يشاء ويريد، فهو الخالق والمتصرف - ورقياً - بشخصياته وأحداثه، لذلك تجد الرواية من أكثر الأجناس الأدبية قدرةً على تمرير الخطابات وتغيير القنوات، فهي ميدان رحب وواسع لتصارع الأيديولوجيات، وفرض الرؤى والأفكار، حيث تضمن لكاتبها أن يسوق لأفكاره خفيةً دون إعلان أو تصريح، بأن يوكل لمن ينوب عنه من شخصياته الروائية بطرح تلك الأفكار التي غالبا ما تكون مثيرة للجدل، لاسيما حينما يكون موضوع الرواية أحد التابوهات الدينية أو السياسية.

تتخذ الدراسة من رواية (الملحد) لـ (عبد الباقي يوسف) سبيلاً لكشف المستور وتعرية المضمّر، بواسطة التدليل على آليات الاغراء والاقناع الفنية واللغوية التي قصدها الرواية؛ لاستمالة القارئ وتضليل وعيه سواء ما يخص قضايا الالحاد أو القضايا الفكرية الأخرى، فضلا عن كشف الإيديولوجيات التي تقف وراء الخطاب، فثمة سلطة خفية تقف خلف أي منجز سردي بما في ذلك هذه الرواية. جاءت الدراسة على محورين اثنين، الأول يكشف عن السلطة في داخل الخطاب، والآخر يكشف عن السلطة أيضاً ولكن في خارج الخطاب، ثم تلت الدراسة خاتمة وقائمة بأهم المصادر والمراجع.

لماذا الرواية؟

الرواية فضاء نصي متسع، وعالم تخيلي ممتد، تربعت على عرش الفنون الأدبية، بعدّها جنساً أدبياً له القدرة على أن يهضم بداخله كل الأجناس الأدبية الأخرى، بل وكل الخطابات والأساليب واللغات ووجهات النظر، فضلاً عن كونها جنساً انفتح على الأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية وواكبها، إذ هي الجنس الأدبي الأقدر على تجسيد الأيديولوجيا؛ فالتحليل السوسولوجي يرى أنّ الرواية هي " شكل أدبي أنتجته البرجوازية الأوربية خلال صعودها الثوري" (بلحسن، ٢٠١٦: ٥٧)؛ لتعبّر بواسطتها عن أفكارها ونمط حياتها. وهذا يعني أنّ الرواية إنّما وجدت أول الأمر لتغيير القنوات وإعادة تشكيل الوعي الجمعي؛ لأنّها ببساطة أشبه بمجتمع متكامل له شخصياته ومكانه وزمانه وأحداثه، ناهيك عن أنّ هذه المكونات السردية هي من صنع الكاتب.

وقولنا أنّها من صنع الكاتب يعني أنّها ستخضع بلا شك لأيديولوجيته، وستفصل على حسب المقاسات الفكرية التي يضعها قبل عملية التلفظ. على سبيل المثال حينما تتصارع الأصوات الروائية فيما بينها، يستطيع الروائي بكل سهولة أن ينتصر لصوته أو لصوت الشخصية التي تصطف مع أفكاره، وإنّما يكون هذا ممكناً لأنّ الروائي هو من يتلاعب بالأصوات السردية الموجودة داخل روايته، وهو من يجعل القارئ يميل لهذه الشخصية أو تلك، وهو من يُحبب له هذا المكان، أو يُنفّر منه أحياناً أخرى، وهو في النهاية من يُمرّر له الأفكار دونما أن يشعر، ف " للعمل الروائي خصائص تجعل منه طريقاً مناسباً لتمرير الأفكار والتصورات والمناهج بأسلوب خفي لا يستثير القارئ على قاعدة (بطيء ولكن أكيد المفعول)" (العجيري، ٢٠١٠: ٢٥).

وإنّ مما يجعل الرواية فناً خطيراً في صناعة الوعي، هو كثرة قرائها مقارنة ببقية الأجناس الفنية، فقد أصبح العمل الروائي سلعة رائجة، وعملاً قابلاً للانتشار بين شريحة القراء أكثر مما سواه من الأعمال الأدبية الأخرى، فثمة جمهور واسع وعريض تستهويهم الحكايات والقصص والإثارة، لاسيما أنّ الرواية تخاطب العواطف قبل العقول، وهذا مما يكفل للكاتب سهولة التأثير في المتلقي بالاشتغال على الجانب العاطفي، فلو أنّ قارئاً ما استقبل من مرسلٍ ما أفكاراً مباشرة عن الشيوعية أو العلمانية أو غير ذلك من القضايا المثيرة للجدل قد يحكم عليه بأنّه مؤدج وأنّه يحمل أفكاراً منحرفة، في حين أنّ نفس القارئ قد يستقبل نفس الأفكار ولكن بقالب قصصي مثير، فقد تستهويه إحدى شخصيات القصة وتسري إليه أفكارها المنحرفة دون أن يشعر، سيما أنّ عليه الخطاب هيمنة ناعمة وسيجد نفسه بعد حين أنّه سار خلف تلك الشخصية وهو معصوب العينين، لأنّ "السارد إذا اعتمد آلية الإقناع في كتابة

الرواية من متعة السرد إلى هيمنة الخطاب... د. همام ياسين

خطابه، سيسعى جاهداً إلى إيصال هذه القناعة إلى مخاطبيه، والتي لا تتم إلا بإحداث أثر بالغ في عقول نفوس متلقيه" (مقري، ٢٠٢٠: ٥٢).

من جهة أخرى تتيح الرواية لكاكتبها التعبير عن أفكاره بنوع من الحرية قد لا يجده في أشكال التعبير الأخرى، فلعلّ من اليسير أن يتذرّع الكاتب الذي يبت - عبر شخصياته الروائية- أفكاراً منحرفة، بأنّ تلك الأفكار لا تُعبر عن وجهة نظره، بل هي مجرد أفكار لشخصيات خيالية لا وجود لا على أرض الواقع.

لهذا وغيره لا غنى للمتلقي من امتلاك ثقافة نقدية تساعده على قراءة أبعاديات الخطاب السردية، بواسطة الاشتغال على تفحص الملفوظات السردية وإحياءاتها السيميائية، فنّمة خطاب قابع هناك في ما وراء السرد، قد يكون ذو أهداف سلطوية تبتغي إيقاع المتلقي في شباك المرسل، فالسرد في النهاية ليس مجرد كلمات للتسلية أو الإمتاع فقط، ولكنه "يرمي إلى التواصل من أجل إقناع المسرود له؛ لأن السردية في التداوليات الاجتماعية إحدى صيغ التواصل، وهي تقع جنباً إلى جنب مع الحجاج في كونهما صيغتين تسعى إلى إحراز تواصل مفعم بالانسجام والاتساق، ومسلح بقدر كبير من الأساليب التأثيرية". (مقري، ٢٠٢٠: ٥١).

أولاً: السلطة في داخل الخطاب

توطئة

يُمارس الخطابُ الروائيُّ سلطته على قرائه من جهتين، الأولى: من جهة اللغة السردية، على أساس العلاقة الجدلية التي تربط اللغة بالسلطة، فاللغة في ذاتها - كبنية تركيبية- تُمارس سلطة على المتكلم بها من ناحية القوانين والضوابط الداخلية التي تتحكم في تلك البنية (المسدي، ٢٠٠٧: ١٨٧-١٨٨)، كما أنَّها تمارس سلطتها على مستقبلها أيضاً كونها تمكّن المتحدث من التأثير على المتلقي والهيمنة عليه بواسطة آلياتها وأدواتها الإقناعية. أما الجهة الثانية لسلطة الخطاب الروائي فتكمن في عملية التكنيك الروائي، فلكل خطابٍ روائيٍّ بنية خاصة، لا بدَّ وأنها ستمارس على المتلقي سلطة من نوع خاص، سلطة قوامها الإثارة والمتعة والتشويق.

١ - لغة السرد

الروايةُ صناعةٌ لغويةٌ بامتياز، فالأفكار المطروحة والصور والأحداث والشخصيات وجميع مكونات السرد هي محكيٌّ منقول بواسطة اللغة، بمعنى أنَّ اللغة هي الشريان الحيوي الذي يُعطي الحياة لتلك العناصر الخيالية، وهي سبيل الكاتب للتأثير في المتلقي؛ نظراً لما تمتلكه من ثراء متميز في المفردات والتراكيب وأساليب وفنون القول؛ لذلك يعتني الكتابُ أيما عناية بملفوظاتهم السردية بالشكل الذي يضمن لها استمالة المتلقي وتطويعه، وهذا يعني أنَّ اللغة - بأدواتها الأسلوبية والإقناعية والجدلية- ستكون داعمةً للخطاب في تحقيق أهدافه. تقول (د. سمر الديوب): " يتصرَّف المرعَّبُ باللغة حين ينتقي المفردات، وينتخبها مدركاً الأثر الذي تحدثه العلاماتُ اللغويةُ في المتلقي، ومدركاً التغير الذي سينتج من المعنى حين تتغيَّر الصياغةُ اللغويةُ (الديوب، ٢٠١٢)". لا بدَّ للقارئِ إذن أن يكون دقيقاً وهو يُفكِّك شفرات العلامات اللغوية، عليه أن يُفكِّس عن المعنى الخفيِّ المُضمَر ولا يأخذ بالمعنى الظاهر.

ثمة قاموسٌ لغويٌّ طفي على السطح مؤخراً وبشدة، حتى صار يؤخذ ما بين دفتيه وكأنَّه مُسلَّمت مفروغ منها. يضم هذا القاموس كل مفردات التشدد والوحشية، ألصقت هذه المفردات بصورة ممنهجة بالإسلام حتى صارت وكأنَّها علامات سيميائية تشير إليه. لقد ألبست هذه المفردات معناها من داخل السياق الاجتماعي نفسه، فاللغة في النهاية "ممارسة اجتماعية، أي تخضع لتحكم جوانب اجتماعية أخرى غير لغوية" (فيركلف، ٢٠١٦: ٤٤)، على سبيل المثال عندما يتم ذكر مفردات ك (الغلو والتطرف) يذهب الفكرُ مباشرة إلى الإسلام، حتى دون الحديث عن المعنى اللغوي لتلك المفردات، فكما أنَّ في الخطاب السيميائي هناك رموز وعلامات دالة تستحضر الصورة عند ذكرها مباشرة، صار في هذا القاموس اللغوي أيضاً علامات دالة وثابتة.

استفادت رواية (الملحد) من هذا القاموس وأخذت تحاكيه في مناسبات عدة؛ وترسم صورة للإسلام مشابهة للخطاب العام المهيمن، فمن الرواية: (ابن جارنا البالغ خمس سنوات كان بجانب البيت، خطفه مسلمون، ثم اغتصبوه، وقطعوا رأسه. جار لنا كان عائد إلى البيت بعد أن أمضى يوماً على المخبز كي يحصل على ربة خبز، أطلقوا عليه النار وهو في طريقه إلى البيت) (يوسف، ٢٠٢٠: ١٠١).

إنَّ اختيار الجملة الفعلية (خطفه مسلمون) بهذا الصيغة اللغوية يتكئ على ذات القاموس المشار إليه في أعلاه، إذ نسبت الجملة الخطف إلى المسلمين، فأعطى ذلك صورة للمتلقي أنَّ الإسلام دينَ خطفٍ واغتصابٍ وقتلٍ، فلو جاء التعبير بـ (يقال أنَّهم مسلمون) أو (يتذرَّعون بالإسلام) لاختلف المعنى كثيراً، لكنَّ المفردات في الخطاب الروائي لا تُنتقى ترفاً أو عبثاً، بل تنمُّ بصورة قصدية وواعية، رغم أنَّ الذات في حقيقة الأمر ليست حرة في الانتقاء، بل هي تُدْعَن -لا واعيَّة- للإطار الأيديولوجي الذي تتموقع داخله (عبيد، ٢٠١٣: ١٠).

ومع علم الذات الساردة بأنَّ داعش لا تنتمي للإسلام، لكنَّها لا تتأخر في كل فرصة في أن تلح على استعمال نفس العلامات اللسانية المؤدلجة، بغية تضليل المتلقي وقولبة وعيه بالقلب الذي تريده، ولعل تصريح الرواية - في مناسبات خجولة - بأنَّ داعش لا تمثل الإسلام قد يوقع المتلقي في فحٍّ سرديٍّ من نوع خاص، قد يُحِيل للمتلقي أنَّ الرواية تسير في الاتجاه الصحيح وهي تميز الغثَّ من السمين ولا تخط الحابل بالنابل، بالتالي تكون كل دعواتها للإلحاد على حق. إنَّ هذا الاشتغال اللغوي لا شك أنَّه قصدي لتمرير الخطاب الأيديولوجي المضمر للمرسِل، يقول (باختين): "في اللغة لا وجود لكلمة أو شكل يُمكن أن يكونا محايدين ... إنَّ الكلمات والأشكال جميعها مسكونة بالنيات" (تودوروف، ١٩٩٦: ١١٥).

وإنَّ من الاشتغالات اللغوية الأخرى ما جاء في الملفوظ التالي، كفعل من أفعال الهيمنة على المتلقي وإغوائه:

(عائلات بأكملها تتعرض للغرق في العبَّارات غير الشرعية التي يديرها مهربون مسلمون، تجار أعضاء بشرية مسلمون، يتعرضون في العراء لمسلمين فأرَّين من ويلات الحرب... صفقات وصفقات تبرم بين مهربين مسلمين، وتجار أعضاء بشرية مسلمين لبيعهم عددا محددا من مسلمين فارين من مسلمين، ولا يشعر الفارون بالأمن إلا بعد أن يتخلصوا من كل ما هو مسلم ويصحوا بين أيدي غير المسلمين، فقط عندها يتنفسون الصعداء، ويستشعرون بالأمان. وأنه ما عاد بوسع أحد أن يختطف أطفالهم، أو ينتهك نساءهم، أو يسطوا على أعضائهم) (يوسف، ٢٠٢٠: ٢١).

تكرَّرت كلمة (مسلمون) في هذا الملفوظ تسع مرات، وتكرارها جاء ملاصقاً لجملة من النعوت المسيئة، بالشكل الذي يوحي للمتلقي وحشية المسلمين وانتهاكاتهم، وكأنَّ هذه الجرائم

والانتهاكات حكراً على المسلمين دون غيرهم. تحاول الرسالة دون أدنى شك تضليل المتلقي ومحاصرته لغوياً - بواسطة التكرار - لتبني أفكاراً أيديولوجية عن الإسلام، إذ يؤدي التكرار كظاهرة لسانية "دوراً مهماً داخل الخطاب الأدبي... متجاوزاً وظائفه التقليدية المعروفة في النقد التقليدي؛ ليصبح في النقد الحديث أداة معرفية" (يوسف، ٢٠١٠: ١٠١) لتطوير وتأكيد الدلالة.

في مقابل الصورة المعتمدة للإسلام، ترسم الرواية صورة أخرى لكن بفاموس لغوي آخر، يبدو متحرراً من كل مفردات الوحشية والتطرف. (قال ريناس: أهم ما استفدته من الإلحاد هو أنه فك عني قيود الإيمان وصرت أشعر بالحرية... علينا أصدقائي أن ننشر مفهومنا الجديد للحياة بين الناس، حتى ننقذهم من آفات الدين) (يوسف، ٢٠٢٠: ١٠٧-١٠٨).

ثمة مقارنة يعقدها - المرسل للمتلقي - بين الانعتاق الدين وما يُفضي إليه من الحرية والانفتاح، وبين اعتناق الدين وما يُفضي إليه من الانغلاق والجمود، فما دام الدين قيد وسجن كذلك فما جدوى اعتناقه، لذلك لا يمكن قراءة مفردات الرسالة نحو (فك عني، الحرية، مفهومنا الجديد للحياة) إلا على أنها علامات إشهارية، هدفها استمالة المتلقي بالترغيب بعد التخويف، ففي الأقوال الخبرية ثمة قيم وأقوال طلبية مستترة (فيركلف، ٢٠٠٩: ٢٢٢)، إضافة إلى ذلك يبدو السارد "محاوراً بارعاً يورط المتلقي بلطف فيما يقول، يكتسح مناطقه، فيعتريه الشك في أفكار كان يسلم بها وفي مبادئ كان يعتنقها" (بوخشة، ٢٠٢٠: ٦٥).

على الجهة الأخرى يبدو الحديث بضمير المتكلمين (نا) حيلة لغوية أخرى تهدف إلى الهيمنة على القارئ، فقله (علينا، مفهومنا) تُعزز من فاعلية الرسالة وتُعظم من الأثر الذي يودُّ الكاتب إحداثه في المتلقي، ففي مثل هذا سيفقد "القارئ حياده في متابعة ما يحدث للسارد، وسرعان ما يشعر بأنه يُشاركه في هذا الذي يحدث له، وكأنه تماهى معه، وكأن ضمير المتكلم بات ضميره هو (أي القارئ)" (اللواتي، ٢٠١٨). بالتالي سيُشعر المتلقي بأنه معنيٌّ بالرسالة، فمثل هذه العلامات تُروّض المتلقي، وتُمارس عليه سلطة ناعمة تُبّيح له تبني أفكار المرسل.

ثمة ملفوظات روائية تُحاول تضليل المتلقي فتُصور له بأن اعتناقه الدين سيفضي به حتماً إلى الغلو والتطرف، أو إنَّ اعتناقه للدين يعني أنه مؤيد لتلك الجماعات الإرهابية، والحقيقة غير ذلك تماماً. (إذا آمنت بهذا الإله فعلياً أن أستحسن كل ما ارتكبه من كوراث، أشارك معهم فيما يفعلونه، لأنهم يقولون بأنهم ينفذون أوامر (الله أكبرهم) هذا... ولا أجد سوى أن أنضم إليهم وأهتف معهم ما يقولونه، أو أن أرفض هذا الإله الذي يأمرهم بهذه الانتهاكات المروعة) (يوسف، ٢٠٢٠: ١٢٧)، وفي نص آخر لشخصية أخرى: (أنا قرأت

القران جيداً، وتعرفون بأن أبي أعدني كي أكون خطيباً، وحصلت على إجازتي الجامعية في الشريعة، وخطبت لمدة سنة، ولكن عندما رأيت هؤلاء تراجع وتراجعت ورأيت بأنني إذا استمررت سأكون شركياً معهم في سفك الدماء، ما دفعني أكثر لأرتد عن الإسلام) (يوسف، ٢٠٢٠: ١٠٨)

تضع الرسالة المتلقي بين خيارين اثنين لا ثالث لهما، هي تقول له: إما أن تنتهج منهج الجماعات الإرهابية المتشددة وتبني فكرهم، وإما أن ترتد عن الإسلام وتتجرد من اعتناق أي دين، والحقيقة أن هذين الخيارين هما من صنع الرواية، وكلاهما باطل، فلا يُشترط في معادتك للنهج المتطرف أن ترتد عن الدين، كما أن اعتناقك للدين لا يعني أنك أصبحت متطرفاً. ثمة سلطة تحاول تضيق الخناق على المتلقي، تحاصره لغوياً وتقرض عليه اختيار أحد الطرفين، وتوهمه بأن ليس هناك خيار في المنتصف. ثم إن استعمال جملة (الله أكبرهم) بهذه الصيغة اللغوية وتكرارها لمرات عدة في الرواية فيه استغناء للمتلقي بأن ثمة إلهاً آخر لا بد من التفتيش والبحث عنه وحاشا لله بل هو إله واحد.

باختصار تبدو القضية أكبر من قضية تنذرع بسحب البساط من تحت التنظيمات المتطرفة كما تدعي الرواية، فالملفوظات الروائية تؤسس - بواسطة اللعب باللغة - لذات لا دينية، وإلا ما معنى أن يصل الأمر إلى حدّ التعرّض للعبادات والتكاليف الشرعية. (عندما أدت الصلاة، انتبه إلى قولها وهي تستدير برأسها يمنة ويسرة، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أراد أن ينفجر قائلاً: أي سلام يا سهاد، وأية رحمة، وأية بركات؟) (يوسف، ٢٠٢٠: ١٧٦)، فلو أريد التمييز حقاً بين الإسلام ومن يدّعيه من التنظيمات المتطرفة، لقلل في مثل هذا الموقف أن الإسلام دين سلام ورحمة، والدليل أننا في كل صلاة نقول (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

٢ - التكنيك الروائي

تخضع الرواية لمخاض عسير وطويل قبل أن تولد على الورق، فهناك أفكار تتصارع، وشخصيات تُخلق، وأحداث تتنامى، وأزمنة تتعاقب، وأمكنة تتنوع. وهناك على الجهة المقابلة كاتب يُفلسف ويُهندس الأمر - عبر تكنيك روائي وسردي من نوع خاص - بحسب ما تقتضيه الثيمة الرئيسية للرواية، أو بالأحرى الفكرة المراد تبليغها للمتلقي، فقد يقبل الكاتب الزمن رأساً على عقب فيبدأ من النهاية وينتهي بالبداية، وقد يكون طبيعياً واقعياً في خلقه لشخصياته، وقد يكون فانتازياً عجائبياً، وقد يختار من الأمكنة أليفها، وقد يختار موحشها. هذا على المستوى السطحي لعملية الخلق الفني للرواية، أما على المستوى العميق فثمة تفاصيل أدق وأعمق تؤخذ في حساب الكاتب الساعي - بكل أدواته الفنية - إلى التأثير في المتلقي وتشكيل وعيه بما يتلاءم مع إيديولوجية الكاتب.

تؤسس الرواية منذ صفحاتها الأولى وفي مواطن عدة لخلق متلقي متماء مع الفكرة المراد تغليبها، عن طريق إشاعة خطاب يجعل المتلقي ينجذب بوعي أو بدون وعي لفكر البطل، ولعل من أول تلك المواطن هي أنها جعلت بطل الرواية وشخصيتها المحورية (دلشاد/ الملحد) ضحية، وهذا من شأنه أن يكسب تعاطف المتلقي مع الشخصية لمجرد كونها ضحية بغض النظر عن كل شيء، شكلها ولونها وخلفيتها الفكرية. ثم عززت الرواية هذا التعاطف بقصة الحب بين (دلشاد وسهاد)، تلك القصة التي ولدت في لحظة الانفجار الدموي الذي حصل في إحدى صالات الأفراح، والذي تسبب من حينها بافتراق الحبيين، لتبدأ بعدها رحلة البحث عن الحبيب، كلاهما يبحث عن الآخر.

(في تلك اللحظات المدمرة، أدركت أنها تمسك بيده، كما لو أنه سفينة نجاة أتت لتتقدها من الغرق... في تلك اللحظات وهي تنظر إليه انبجست دموع من عينيها، وقد راودها إحساس بأنه فارق الحياة من كثر النزيف، ولا تدري كيف انطلقت من حنجرتها صرخة مدوية، لا.. لا.. لا..) (يوسف، ٢٠٢٠: ٣-٤).

إن رحلة البحث هذه هي البداية الفعلية الأولى للهيمنة السردية على المتلقي، سينجّر المتلقي - بواسطة هذا التكنيك الروائي - إلى الجهة التي تريدها الرواية، سيشعر أنه معني بالرسالة، وأنه هو الآخر يبحث عن طرفه الثاني، بالتالي سينجذب إلى حد بعيد إلى الخلفية الفكرية للبطل، سيفكر بما يفكر به، وسيتبنى ما يتبناه، لاسيما وأن القصة ذات مسحة وجدانية وعاطفية كثيفة تُغري القارئ وتدفعه إلى مواصلة البحث، ولعل هذا ما يندرج تحت مُسمى الحجاج بالعاطفة، وهو "مسلك مهم يقوم على بناء العواطف داخل الخطاب بناء حجاجيا يساعد على تبرير ما يشعر به المتكلم من عواطف، وحمل المخاطب على الاعتقاد في صحة ذلك الشعور، ومن ثم على تبنيه" (عبيد، ٢٠١١: ٢٤٠).

تتكئ الرواية على بنية سردية مائعة، بدءاً من لحظة الافتراق، مروراً برحلة البحث، وصولاً إلى نقطة الالتقاء، ليس ثمة مساحات سردية بيضاء، تسير الرواية بخطى متسارعة، لا تدع القارئ يفلت من بين نصوصها، فالأحداث على مستوى كبير من التشويق، هذا التشويق نفسه من يحكم سلطته على القارئ، فتتحول الرواية من متعة سردية إلى هيمنة خطابية تُقرض على القارئ.

ثم إن اختيار الزوج لتبني فكرة الإلحاد في عائلة صغيرة ناشئة للتو، سيجعل المتلقي يستسلم نوعاً ما لتلك الطروحات الفكرية، بمعنى آخر: قد يختلف الأمر لو تبني فكرة الإلحاد فرد من عائلة كبيرة ما، سيشعر أنه مختلف أو منبوذ داخل عائلته، لكن أن يكون هو رب الأسرة وهو المالك لزماتها فالأمر هنا لا شك مختلف، شيئاً فشيئاً سيتبع رب الأسرة أفرادها، ولعل هذا ما حصل بالفعل، فالزوجة (سهاد) التي بدت ناصحة لزوجها، منكراً عليه فعله،

ستترسخ في لحظة ما لأفكاره، بل رضخت، وبرضوخها أعطت الشرعية للقارئ في تبني النزعة الفكرية للبطل، فيما إذا كان لم يحسم أمره بعد، فقولها: (أشهد أنني ملحدة) جعل الغلبة والنصر لأفكار زوجها الإلحادية، الأمر الذي يؤهم القارئ بأن ما أقدمت عليه الزوجة هو الحق وما دونه باطل، لاسيما وأنَّ (سهاد) منذ بداية الرواية قد رأت في (دلشاد) أنه (سفينة النجاة). إنَّ عدم وجود أوامر أو نواهي مباشرة إلى القارئ لا يعني أنَّ السرد بريء، فثمة مضمرات خطابية مُضمَّنة داخله (مشبال، ٢٠١٠: ١٥).

أمَّا على مستوى المبنى الحكائي، فالثابت أنَّه لا يقل أهمية عن المتن الحكائي (القصة الخام)؛ كونه يعمل على هندسة عناصر الرواية من مكانٍ وزمانٍ وحدثٍ، ويجمع أجزاء النص مع بعضها البعض؛ لـ "إتمام الدلالة والبناء الفكري والاجتماعي، أو فيما يُعرف بـ(ثقافة النص)" (سلامة، ٢٠٢٠: ٢٥٣). حيث يبدو الترتيب الزمني للأحداث مناسباً جداً لأقناع القارئ والهيمنة عليه، فسير الأحداث بحسب زمنها المنطقي دونما استباق أو استرجاع جعل المتلقي حاضرَ الذهن، يسير مع الحدث خطوة بخطوة، دون أن يصيبه أي تشظٍّ في الزمن أو خلخلة في نسقية الأحداث، وحتى في المناطق السردية التي يتوقف فيها الزمن قليلاً لتصوير مشهد ما، يُصوِّر المشهدُ بطريقة دراماتيكية تجعل المتلقي مشدودَ الذهن، متقدِّ العاطفة، الأمر الذي يُعزز استمالته واستعطافه، فحتى يكتسب المقطع السردى درجة عالية من الإقناعية لا بدَّ من احترام الترتيب الكرونولوجي للقصة (بلنجز، ٢٠١٢: ١٢٣)، وهذا ما حدث بالفعل إذ أعطى السردُ اللاحق للقصة مصداقية عالية وبدا الراوي وكأنَّه مجرد ناقلٍ لما وقع.

أمَّا المكان الذي دارت فيه أحداث الرواية فقد جاء واقعياً جداً، بعيداً عن التخيل السردى، إذ سُمِّيت الأماكنُ بأسمائها الطبيعية والواقعية، الأمر الذي جعل القارئ يعيش الواقعة فعلاً دون خيال أو غرابية، فأماكن كـ (دمشق، معرض دمشق الدولي، الدائرة، المسجد) لا شكَّ أنَّها مألوفاً لدى المتلقي، فضلاً عن كونها ذات أطر جغرافية معروفة.

ثمة تكتيكٌ روائيٌّ آخر ألقى بظلاله على القارئ، وأوقعه بشباكه الأيديولوجية، حيث لم يُعلن (دلشاد) إلحاده منذ بداية الرواية، فقد سبقت نزوعه الإلحادي طروحات وتساؤلات عدة، أعطت للقارئ مساحة فكرية للتأمل والتفكير، وضلَّلت وعيه في الوقت ذاته حينما أوهمته بأنَّ الإسلام هو المسبب، نحو: (في تلك اللحظات وخطواته تمضي به تحت ثقل جسده، خطرت له أفكار غريبة لأول مرة: هل لو وقع هذا الخلل الأمني في ظرف طارئ ما لأيِّ مجتمع غير إسلامي، هل كان سيفتك ببعضه البعض بهذه القسوة المروعة كما يحصل هنا؟ هل حقاً الإسلام يعزز النزعات العدوانية؟... ترى لو سبحت هذه الذرائع الإسلامية من هؤلاء، هل سيلبثون على ما هم عليه من انتهاكات، هل ستخف النزعة العدوانية لديهم، هل

ستكشف كتيبة هذا الصباحي من قصف المجمع السكني الذي يسيطر عليه لواء ذلك (الصحابي؟) (يوسف، ٢٠٢٠: ١٥).

وعندما أخذ (دلشاد) قراره بالإلحاد، وبدأ بممارسة ما يُبيحه له الإلحاد بزعمه من (شرب الخمر، وترك الصلاة، والأكل في نهار رمضان، وعدم الاغتسال من الجنابة)، كان كل ذلك يأتي شيئاً بعد شيء، أي على مهل وليس دفعة واحدة، ليس بالشكل الذي يجعل القارئ يرفض نزوعه البتّة، وحتى شهادة (سهاد) بإلحاده (أشهد أنني ملحد) لم تأت في بداية الرواية، وإنما بعد أكثر من مائة وثمانين صفحة من الرواية، فلو أنّها وافقته منذ اللحظة الأولى لإلحاده لجعل الرواية ذات تقريرية فجّة، وأيديولوجيا فاقعة، ولأوحى ذلك للقارئ أنّ الرواية تسعى إلى نشر الإلحاد، ولحكمَ عليها بأنّها مؤدلجة، ولقابلها بالرفض، لكنّ استمالة القارئ واستعطافه أجدى في عملية الهيمنة عليه، فمتى ما كانت الايديولوجيا مُضمرةً غير مصرّح بها، كانت أكثر فاعلية وجدوى، يقول (نورمان فيركلف): "تُحقّق الايديولوجيا أقصى فاعلية لها عندما تعمل في أقصى درجات الخفاء" (فيركلّف، ٢٠١٦: ١٢١).

ثانياً: السلطة في خارج الخطاب

ثمة أيديولوجيا خفية تُمارس سلطتها على ذات المتلقي بل وحتى على الروائي نفسه بوصفه ذاتاً اجتماعية، فكلا الاثنين (المرسل والمرسل إليه) - بل وحتى الرسالة - يقبع تحت سطوة خطاب أيديولوجي عام، على تعدد واختلاف شكل ذلك الخطاب، أدبياً كان أم سياسياً أم دينياً أم ثقافياً، بمعنى أنّ هذا الخطاب أو السياق سيؤثر حتماً على عمليتي الانتاج والتفسير. وإن كنا قد سمّينا هذه السلطة بأنّها سلطة من خارج الخطاب، فإنّنا نعني بأنّها خارج الخطاب الروائي كلغة سردية أو تكنيك روائي، فالخطاب الديني على سبيل المثال - بشكله المؤدلج - هو سلطة تُمارس على المتلقي قبل عملية التلفظ، أي قبل تلقيه العمل الروائي، هذا الخطاب يعمل بشكل فعّال على توجيه عملية التأويل، بمعنى أنّ المتلقي سيؤوّل العمل الروائي وهو في الأساس متأثر أو حامل لفكر أيديولوجي ما، فكل ذات إنسانية لا بدّ وأنها حاملة لأيديولوجية بحكم التنشئة الاجتماعية أو الواقع الاجتماعي الذي تعيشه، لاسيما في ظل الانفجارات الفكرية الأخيرة التي تعصف بالمجتمعات الإسلامية والعربية على وجه التحديد.

فلو ألقى الناقد المهمّ بالشأن الديني أو الفكري بصورة عامة نظرة سريعةً لردود الأفعال والخطابات العالمية أو التي رافقت وتمخضت عن احتلال ما يسمى بـ(داعش) للمدن السورية والعراقية، لأدرك بيسر أنّ الخطاب المستفجل هو خطاب تنفييري تشويهي، خلط الغث بالسمين، وبدأ ينشر صورة دموية للدين الإسلامي الحنيف، واستبدل بعمدٍ وقصدٍ سماحة الدين ووسطيته، بالوحشية والعنف والتشدد؛ لتحقيق غايات وأهداف أيديولوجية.

إنّ مما لا شك فيه أنّ هذا الجو الفكري سيُسهّم ويُمارس سلطته وهيمنته بشكل فعّال على كافة الطبقات الاجتماعية التي أُصيبَت منظومتها الدينية بالتصدّع والانشقاق، ودليل هذا الكمّ الهائل من الخطابات والندوات والمؤتمرات التي أخذت على عاتقها تقزيم الخطاب المنفّر والمشوّه للدين الحنيف الذي أخذ يضرب بعمق الثوابت الدينية الراسخة.

ولعلّ الخطاب الروائي واحداً من بين هذه الخطابات التي أخذت تحاكي أو تساير الخطابات المؤدلجة، بل وتتبنى هذا الخطاب الأيديولوجي المنفّر في بعض الأحيان من الدين، والداعي إلى الإلحاد صراحة أو خفية، لاسيما وأننا إزاء خطاب مراوغ قد يُظهر خلاف ما يُضمّر، مستفيداً من الآليات الفنية المتاحة له. هذا يعني أنّ المتلقي سيكون تحت سطوة سلطتين الأولى من داخل الخطاب الروائي والثانية من خارجه. ستتعاوض السلطانان للهيمنة على المتلقي وإبقاعه في شباكها الأيديولوجية، حتى الروائي نفسه قد لا يسلم من ذلك، بل قد يكون أحد ضحايا سلطة الخطاب السائد دونما أن يشعر.

إنّ تأثير الخطاب الأيديولوجي السائد على الرواية واضح وبيّن، فالرواية تجمال ذلك الخطاب بل وتجسّده على الورق بواسطة بطل الرواية، ويفترض أيضاً أنّها ستلقي قارئاً يقبع تحت سطوة ذلك الخطاب الذي يسعى إلى خلخلة الوعي الديني لدى الجمهور، في مقابل صناعة وعي جديد، عن طريق أدلجة الدين باستعمال أدوات مختلفة آخرها (داعش)، التي سخر لها مختلف الآليات الإشهارية لتشويه صورة الإسلام، ففتنت في بثّ صور ومشاهد الدم والرعب، مستفيدة من قدرة الصورة المرئية "على إثارة القلق في ثوابت المفاهيم" (الغذامي، ٢٠٠٥: ٣٤)، حتى دفعت بالكثيرين إلى تبني الإلحاد، بل وأخذت تشرعن للمنتمين للإلحاد بأنّ تخليك عن الدين يعني تخليك عن العنف والعلو والوحشية، فاستغبت الكثيرين بواسطة خطاب يستميل الضحية ويستعطفها، ويصدّع دفاعاتها النقدية عن طريق العزف على الأوتار العاطفية.

داخل هذا الجو المشحون بالافتراءات والتضليل الإعلامي تتقاذف المتلقي أمواجٌ فكريةٌ عاتيةٌ، تُساهم في صناعة وعي جديد من شأنه أن يعزز في نفسه صورة قمعية للدين. إنّ هذه الامواج الفكرية هي في الحقيقة سلطة تُمارس على المتلقي وتحاول الهيمنة عليه في كل فرصة تراها مناسبة لتضليل وعيه، فقد أعطت الدول المُهيمنة لنفسها - بواسطة صورة داعش التي صنعتها - شرعية لمهاجمة الإسلام، إلى الحدّ الذي صار يُخشى فيه حتى من مجرد الحديث عن الواجبات الدينية والشرعية، وصار يُقابل الملترزم بتعاليم الإسلام الحقّة بأنّه متشدد ومتطرف، بل وصارت تنسب كل اعتداء إرهابي يقع - بغضّ النظر عن خلفيته - بأنّه من متشددين إسلاميين، فألصقت بالإسلام تهمة التشدد والتطرف وهو منها براء، حتى صار ذكر التشدد والعنف مرادفاً للإسلام.

بالتالي إنّ هذه السلطة المشار إليها بـ (السلطة من خارج الخطاب)، هي من اتكأت عليها الرواية فمرّرت بواسطتها خطاباً روائياً مارس هو الآخر سلطة لغوية وسردية على المتلقي. ثمَّ أنّ هذه السلطة (الخارجية) لم تسلم منها حتى الرواية نفسها، فهناك كمّ كبير من الروايات وقعت ضحية هذه الخطاب المهيمن وصارت بوقاً له، تتحدث بلسانه، وتتفنع بأقنعه.

الخاتمة

في ضوء ما سبق يمكن تلخيص أهم النتائج الآتية:

- ١- الرواية أرض خصبة، وميدان رحب لحقن الأفكار الأيديولوجية؛ لاسيما إذا ما دارت أحداثها في مجتمعات تعاني ترهلات فكرية واختلالات دينية وسياسية.
- ٢- تبدو الرواية من أنجع الأجناس الأدبية وأقدرها على تمرير الرؤى والأفكار، نظرا لما تحتويه من فنون القول وأساليب التعبير، فضلا عن كونها معينا ثرا من الحجج والبراهين، التي تنكئ في الأغلب على الجانب العاطفي والتشويقي، والذي لا يقل أهمية عن الجانب المنطقي، فكلا الاثنين وسيلة فعالة لاستمالة القارئ وإقناعه.
- ٣- ظلّت رواية (الملحد) متلقيها وأوهمتهم ببعض الافتراءات والأقاويل، عن طريق الاعتماد على قواميس لغوية صُمّمت خصيصاً لجعل المتلقي يتبنى أفكار ووجهات نظر أرادت الرواية، وأرادها من قبل الآخر المتربص بالإسلام.
- ٤- صُمّمت مقاطع وأحداث الرواية بطريقة هندسية متقنة؛ لإيقاع المتلقي بشباكها، بدء من اختيار القصة والمكان الذي تدور فيها، مروراً بالترتيب المنطقي للأحداث، وانتهاء بالانتصار لرأي الشخصية المحورية.
- ٥- استعانت الرواية بخطاب الآخر (المُهمين) وشاركته في قولبة وعي المتلقي بقالب أيديولوجي، يمزج في أحيان كثيرة بين الإسلام الحق كدين سماوي، وبين التنظيمات المتطرفة المتزعة بالدين.

ثبت المصادر

- ❖ اللواتي، إ. (٢٠١٨)، السرد بضمير المتكلم في القصة القصيرة العمانية، صحيفة الرؤية.
- ❖ تودوروف، ت. (١٩٩٦)، ميخائل باختين المبدأ الحوارى، ط١، ترجمة: فخري صالح، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- ❖ عبيد، ح. (٢٠١١)، منزلة العواطف في الحجاج، مجلة عالم الفكر.
- ❖ عبيد، ح. (٢٠١٣)، في تحليل الخطاب، البلاغة وتحليل الخطاب، ط١، عمان، دار ورد الأردنية.
- ❖ بوخشة، خ. (٢٠٢٠)، العلاقات الحجاجية في قصة النظارتين لـ (ادغار ألن بو)، الدراسات الثقافية واللغوية والفنية، ١٣ (٤).
- ❖ الديوب، س. (٢٠١٢)، مضمرات الخطاب في النص الإشهاري. صحيفة طنجة الأدبية.
- ❖ يوسف، ع. (٢٠٢٠)، الملحد، ط١، القاهرة، اسكرايب للنشر والتوزيع.
- ❖ المسدي، ع. (٢٠٠٧)، السياسة وسلطة اللغة، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية.
- ❖ يوسف، ع. (٢٠١٠)، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة، ط١، بيروت، الدار العربية للعلوم، ناشرون.
- ❖ العجيري، ع. (٢٠١٠)، من عبث الرواية (نظرات من واقع الرواية)، ط١، الرياض، دار الخراز للنشر والتوزيع.
- ❖ بلحسن، ع. (٢٠١٦)، الرواية والايديولوجيا، ط٢، مراكش، دار الملتقى.
- ❖ بلنجز، ل. (٢٠١٢)، عدة الأدوات الحجاجية، ط١، ترجمة: حافظ اسماعيلي علوي، عمان، عالم الكتب الحديث.
- ❖ مشبال، م. (٢٠١٠)، البلاغة والسرد، جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، المغرب، منشورات كلية الاداب/ جامعة عبدالملك السعدي.
- ❖ سلامة، م. (٢٠٢٠)، البناء الزمني للأحداث في رواية شواطئ الدم شواطئ الملح للكاتب ابراهيم حسين ناصر، الدراسات التاريخية والثقافية، ١ (٤٣).
- ❖ مقري، م. (٢٠٢٠)، الخطاب الحجاجي في السرد الجزائري المعاصر، قراءة مقطوعة من روايات مقامات الذاكرة المنسية لـ حبيب مونسي. مجلة التحبير، ٢ (٣).
- ❖ فيركلف، ن. (٢٠٠٩)، تحليل الخطاب الاجتماعي، التحليل النصي في البحث الاجتماعي، ط١، ترجمة: طلال وهبة، بيروت، المنظمة العربية للترجمة.
- ❖ فيركلف، ن. (٢٠١٦)، اللغة والسلطة، ط١، ترجمة: محمد عناني، القاهرة، المركز القومي للترجمة.

The reviewer

- ❖ Al-Lawati, E. (2018). Narration with the narrator's pronoun in the Omani short story. Al-Ru'ya Newspaper .
- ❖ Todorov, T. (1996). Mikhail Bakhtin: The dialogical principle (1st ed., Fakhri Saleh, Trans.). Beirut: Arab Institution for Studies and Publishing .
- ❖ Obeid, H. (2011). The status of emotions in argumentation. Al-'Alam Al-Fikr Magazine .
- ❖ Obeid, H. (2013). In discourse analysis, rhetoric, and discourse analysis (1st ed.). Amman: Dar Ward Al-Urduniya .
- ❖ Bokhsha, K. (2020). Argumentative relations in the story of "The Glasses" by Edgar Allan Poe. Cultural, Linguistic, and Artistic Studies, 13(4 .
- ❖ Al-Dioub, S. (2012). Implicit aspects of discourse in advertising text. Tangier Literary Gazette .
- ❖ Youssef, A. (2020). The atheist (1st ed.). Cairo: Iscrap for Publishing and Distribution .
- ❖ Al-Masadi, A. (2007). Language politics and authority. Cairo: The Egyptian Lebanese House .
- ❖ Youssef, A. (2010). Linguistics of discourse and cultural patterns: Philosophy of meaning between discourse system and cultural conditions (1st ed.). Beirut: Dar Al-Arabiya for Science, Publishers .
- ❖ Al-Ajiri, A. (2010). From the nonsense of the novel: Insights from the reality of the novel (1st ed.). Riyadh: Dar Al-Kharaz for Publishing and Distribution .
- ❖ Belhassen, A. (2016). The novel and ideology (2nd ed.). Marrakech: Dar Al-Multaqa .

- ❖ Belanger, L. (2012). Various argumentative tools (1st ed., Hafez Ismaili Alawi, Ed., & Qutal Fadila, Trans.). Amman: Modern Books World .
- ❖ Meshbal, M. (2010). Rhetoric and narration: The debate of imaging and argumentation in Al-Jahiz's news. Tetouan: Faculty of Arts/Abdelmalek Essaadi University .
- ❖ Salama, M. (2020). Temporal structure of events in the novel Shoateh Al-Dam Shoateh Al-Malih by Ibrahim Hussein Nasser. Journal of Historical and Cultural Studies, 1(43) .
- ❖ Maqri, M. (2020). Argumentative discourse in contemporary Algerian narrative: A fragmented reading from the forgotten Maqamat Al-Dharka novels by Habib Mounsi. Al-Tahbir Magazine, 2(3) .
- ❖ Fairclough, N. (2009). Analysis of social discourse: Textual analysis in social research (1st ed., Talal Wahba, Trans.). Beirut: Arab Organization for Translation .
- ❖ Fairclough, N. (2016). Language and power (1st ed., Mohamed Anani, Trans.). Cairo: National Center for Translation .